

قراءة في وظيفة الشماسات ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا

نقولا أبومراد

«أوصيكم بأختنا فيبي التي هي خادمة الكنيسة» (رومية 16: 1)

الشماسات كصورة للروح القدس؛ وانظروا إلى الشيوخ كصور للرسول» (2، 26، 30).

من الجدير ذكره أن هذا التشبيه ينطبق في إطار الليتورجيا الإفخارستية، التي شاء إغناطيوس الأنطاكي أن يجعل من ترتيبها ووظيفة كل منها صورة للعمل الإلهي المتجسد في المسيح مخلص العالم، وذلك لنقل المشاركين فيها من الخضوع للعالم بتفرقاته، إلى الوحدة مع الرأس، وحدة في الخدمة التامة. وعليه، فإن الديداسكالية تعتبر الشماسات جزءًا أساسيًا من هذه الوحدة، إذ يشكلن الجناح الآخر للخدمة إلى جانب الشماسية.

ويأتي التعبير عن أهمية هذه الخدمة في ترجمتها الحياتية خارج الليتورجيا الإفخارستية، في نص جميل في الديداسكالية يتحدث عن خدمة الشماسية والشماسات: «ولذا أيها الأسقف، أقم خدامًا دائمين للعدل، لكي يساعدوا شعبك لأجل الحياة. إنتخب وأقم خدامًا من شعبك ممن تشاء؛ وليعن الرجال بالأمور الضرورية، أما النساء فليُقمن لخدمة النساء» (3، 12). هذا النص، وما يرد بعده من تفاصيل في كيفية إتمام هذه الخدمة، يفيدنا بما يأتي:

• كانت خدمة الشماسية في الكنيسة تتضمن فرعين: واحدًا للرجال وآخر للنساء، هي خدمة الشماسات الرعائية. ويحاول كتاب الديداسكالية أن يقنع الأسقف أنه لو أراد أن يحقق خدمة جيدة في كنيسته، عليه أن يختار شماسة وشماسات، وذلك لتكون الخدمة ملائمة للرجال والنساء على حد سواء. وبنسبة هذا، يساوي كاتب الديداسكالية بين خدمة الرجال وخدمة النساء ويضعهما على قدم المساواة.

• يتربط العمل الليتورجي للشماسات بمعمودية النساء. بحسب الديداسكالية، كان البالغون يعمدون عراة سواء أكانوا رجالاً أو نساء، ولذا وجب أن تقوم الشماسات بأنفسهن بمسح المعمدات بالزيت بعد خروجهن من جرن المعمودية. كما أن وظيفتهن كانت تقوم أيضاً على استقبال المعمدات جديدًا في الكنيسة وإرشادهن والإشراف عليهن وترتيب أحوالهن. ولعل هذه الوظيفة هي التي تطورت في ما بعد إلى

مبادرة جريئة، عقد مركز الدراسات المسكونية والبشارية والبيئية» (CEMES) التابع للجامعة الدولية الهلينية في مدينة تسالونيكى اليونانية، مؤتمراً خصصه لدراسة وظيفة الشماسات في جذورها الماضية والممارسات الحاضرة وآفاق المستقبل، وذلك من 31 كانون الأول ولغاية 2 شباط 2020. وقد طُلب إليّ أن أدلي بمساهمة في الموضوع انطلاقاً من التراث والممارسة الأنطاكيتين. وقد رأيت أن أسهل هذه السلسلة من المقالات لمجلة النور لعام 2020، والتي سوف أخصصها للخدمة في الكنيسة، بعرض بعض من النقاط التي شددت عليها في مساهمتي في المؤتمر المذكور، وذلك لأهمية ما جاء في تراث الكنيسة في هذا الموضوع، من حيث معنى الخدمة في الكنيسة.

فقد بين الدارسون، في تحليلهم لنصوص ليتورجية وأبائية من القرون الأولى، بما لا يقبل الشك، أن وظيفة الشموسية في الكنائس الشرقية، ولا سيما منها أنطاكية بانتشارها في المدى السوري، وكنيسة القسطنطينية، وغيرها من الكنائس الشرقية، كانت تضم شماسة وشماسات، وأن الشماسات كن يحسبن في عداد الأسقف والشيخ والشماس، لا في فئة الوظائف الأخرى كالقراء ومساعدى الشماسية. فتمت مقاطعة طويلة في كتاب «المؤسسات الرسولية»، الذي يشهد للممارسات الليتورجية كما كانت معروفة في سوريا في القرنين الرابع والخامس، تتحدث بوضوح تام عن رسامة الشماسات بحضور الأسقف والمشيخة والشماسية، ما يعزز الافتراض بأن رسامتهن كان تتم في العلن، أمام المذبح - وهذا ما يشهد عليه لاحقاً الكتاب المسمى «إفخولوجيون باربريني» (القرن الثامن) - تماماً كرسامة الشيوخ والشماسية، وليس في بيت الخدمة بعيداً عن نظر الحضور، كما كانت الحال في ما يخص الوظائف المساعدة الأخرى.

وقد أتت أقدم الشهادات على هذه الوظيفة، خارج الكتاب المقدس، في ما يُعرف بالديداسكالية، أو «تعليم الرسل الاثني عشر، وهو كتاب يعود إلى أواسط القرن الثالث، وينقل أشكال الممارسات الليتورجية وبعض التعاليم كما كانت ممارسة في ذلك الوقت. مستنداً إلى رسائل إغناطيوس الأنطاكي (أوائل القرن الثاني)، تشبه الديداسكالية الأسقف بالله والمشيخة بالرسول والشماسية بالمسيح، أما الشماسات فيشبههن بالروح القدس، «الشماس حاضر كصورة المسيح، ولذا فلتحبوه؛ ولتكرموا

والحقيقة أن الكنائس الأرثوذكسية بعامّة، ومنها الكنيسة الأنطاكية، لا تعرف اليوم، بطبيعة الحال، هذه الوظيفة، ولم تُطرح بجدية على بساط البحث في الأوساط اللاهوتية أو من جانب القيادات الكنسية. هناك شذرات تفكير هنا وثمة عند بعض الكتاب، ولكنها لا ترقى إلى مستوى أن تكون نظرة جدية في هذا الشأن.

وقناعتي أن حياتنا اليوم والتحديات المطروحة علينا من جهة التعليم وجسامة الواجبات الرعائية والالتزامات المتصلة بها، وتفعيلًا ما تعلمناه من آباءنا القديسين ونصوصنا التأسيسية من جهة كون الخدمة هي حقيقة تجسيد شركتنا في الإفخارستيا، تحتم علينا أن ننظر في إمكان استعادة هذه الوظيفة بشكل من الأشكال، لا سيما في كنيسة الأنطاكية التي تعيش اليوم ركودًا كبيرًا في المجال الرعائي الشامل، بعد نهضة كبيرة عرفتها بعد مطلع أربعينيات القرن الماضي.

فحتى نشوء حركة الشبيبة الأرثوذكسية في الأربعينيات، لم تكن النساء يلعبن أي دور يُذكر في حياة الكنيسة، وما كنّ يشتركن في العمل الرعائي بشكل منتظم. يمكننا أن نتصور انطلاقًا من ممارسات لا زالت قائمة، بأن دورهنّ كان يقتصر، إلى جانب حضور الخدم، على ما يسميه كاليستوس وير «ترتيب الأزهار وإعداد القهوة».

غير أن أنطاكية، مع ظهور حركة الشبيبة الأرثوذكسية، لم تشهد فقط نهضة من جهة اشتراك عدد أكبر من المؤمنين في الأنشطة الرعائية والتثقيفية الدينية، ولكنها شهدت أيضًا اشتراكًا فاعلاً ومؤثرًا للنساء في هذه الأنشطة. فقد اشتركن في فرق الشبيبة، وكنّ قائدات ومعلمات، ومنهّن من برزن ككاتبات في مواضيع لاهوتية، ومقالات نشرت في النور وغيرها من المجلات. وكثيرات انطلقن في تعزيز المدّ الحركي بالانتقال من مكان إلى آخر تأسيسًا لفرع أو إرشادًا لفرق شبيبية.

وأنشئت أديرة نسائية جديدة، سرعان ما تحوّلت إلى مساحة يلجأ إليها طالبو الإرشاد الروحي ومعرفة للإيمان أكثر تعمقًا. وتأسس معهد اللاهوت في البلمند بدافع كبير من النهضة الحركية ليكون، كما أريد له، صرحًا يدرس فيه الشباب اللاهوت للتعمق في الإيمان وتفعيل العمل الرعائي على أساس معرفة الكتاب والتراث وتحسّس غناهما. وفعلاً كان من بين الخريجين نساء كثيرات، لم يدرسن اللاهوت لغاية سوى غيرتهنّ على العمل الرعائي والحركي.

غير أن الأمور وصلت للأسف إلى ركود كبير على هذا الصعيد، فلم نعرف كاتبات غير الذين عرفناهنّ إلا القليل، وغابت المرأة عن التعليم اللاهوتي أحيانًا كثيرة لأسباب عدّة يتعلّق بعضها بالنظرة إلى وظيفة

العزّاب والعزّابة، ثمّ إلى الاعتقاد الشائع لدى العامة بأن الفتاة لا يمكن أن يكون لها إلا عزّابة.

• أمّا العمل الرعائي للشَّماسات فيقوم على مساعدة النساء والعناية بهنّ. في هذا الإطار ينبغي التأكيد على أنّ العمل الرعائي في خدمة المحتاجين إلى الرعاية، في الديداسكاليتية وقبلها لدى إغناطيوس الأنطاكي، ليس منفصلاً عن الليتورجيا الإفخارستية، بل هو امتداد طبيعيّ لها، ولذا كان الأسقف مشرفًا عليه، كما يشرف على الخدمة الليتورجية ويرأسها صورةً لله الأب. وعليه، كانت الشَّماسات يقمن بزيارة النساء المحتاجات أو المرضى والعناية بهنّ والإحسان إليهنّ.

• ثمة حدود لخدمة الشَّماسات نراها في الديداسكاليتية، وثمر في النصوص اللاحقة، وهي غياب أيّ إشارة إلى دور لهنّ في الخدمة الإفخارستية؛ كما يُمنع عليهنّ أن يعلمن في الكنيسة أو يقمن بالمعمودية بأنفسهنّ. هذا وتجعل الديداسكاليتية الشمامسة مشرفين على عمل الشَّماسات، وذلك لامتداد خدمة الشمامسة على جوانب أخرى لا تستطيع الشَّماسات أن يقمن بها. في هذا الإطار، لا نستطيع الجزم بأنّ الشَّماسات منعن بالمطلق من المشاركة في الخدمة الليتورجية في كلّ مكان، وذلك لأنّ ثمة شواهد كثيرة تنبغي دراستها، لا سيما في التراث الإيقونوغرافي والذي يمكنه أن يفتح لنا أبعادًا دراسية جديدة في هذا الخصوص.

هذه الخدمة التي يفضلها كتاب الديداسكاليتية وينسبها إلى الشَّماسات، نجدها أيضًا في عدد غير قليل من الشواهد، كقوانين مجمع نيقية وكتاب المؤسّسات الرسولية، ولدى هيبوليتس الرومي، ويوحنا الذهبي الفمّ، وثيودوروس المبسوستي، وثيودوريتس القورشي، وإبيفانيوس أسقف سلاميس، وكثيرين غيرهم. وقد بلغت الممارسة أوجها في القرن الثامن، ثم بدأت بالتراجع حتى زوالها بالكامل في وقت ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

السؤال الأساسي الذي طرحه المؤتمرون، هو ما إذا كان بالإمكان إعادة هذه الوظيفة إلى الكنيسة اليوم. بغضّ النظر عمّا يمكن أن تكون الدوافع المختلفة لطرح هذا السؤال، أرى أنّه من الأهمية بمكان أن يتحوّل هذا الأمر إلى مادة للبحث في الأوساط الكنسية، وذلك من مطلق وحدة أعضاء جسد المسيح ووظائفهم المتكاملة بعلاقتهم مع الرأس الواحد والوحيد الذي هو المسيح. كلّ اعتبار آخر، سواء أكان يستند إلى المساواة بين المرأة والرجل، أو من قبيل تمكين المرأة، أو ما إلى ذلك من قضايا، لا يُعطي هذا الموضوع حقّه ومكانته الأساسية في الفكر والممارسة الكنسيّتين في القرون الأولى، بل يحرفه باتجاه آخر.

الأساسي والترجمة الفعلية الملموسة للمحبة التي تشهد لها الإفخارستية في حياة المؤمنين اليومية.

كما أنّ ثمة جانب آخر يستحقّ النظر فيه هو التعليم والوعظ. رغم أنّ بعض النصوص القديمة تمنع النساء من الوعظ والتعليم، إلاّ أنّي أعتقد أنّه بإمكاننا اليوم أن نعود إلى نصوص الرسول بولس الذي منع النساء من الثرثرة في الكنيسة، ولم يمنعهنّ من التنبؤ، أي أنّه دعاهنّ إلى مخاطبة الجماعة بكلمة الله ووعظها.

وثمة اعتبار آخر يقوم على السماح للشَّماسات بالقيام بما يقوم به الشَّماس اليوم، سيّما وأنّ معظم الرجال الذين يرسمون شمامسة، يعتبرون الشموسية معبرًا لهم إلى الدرجات الأعلى، ما قد أدى إلى تهميش خدمة الشموسية اليوم ووظيفتها الأساسية، وافرغها من عمق معناها. فلماذا لا يُنظر في إعطائها للنساء؟

أعرف أنّ هذا الموضوع متّصل بشتّى الاعتبارات اللاهوتية المتّصلة بما إذا كان يحقّ للنساء أن يمسوا الأسرار الإلهية أو لا، وهو متّصل أيضًا بما إذا كان بإمكانهنّ الوصول إلى الدرجة الكهنوتية. لهذا الحديث مقام آخر. ولكّتي، لا أظنّ أنّ ثمة اعتبارات لاهوتية تمنعنا من النظر في هذه الأمور، بإعادة تقييم للمنطلقات التي صاغها هذا أو ذاك من اللاهوتيين هنا وثمة تبرير عدم جواز قيام النساء بخدمة إفخارستية، وصوغ تفكير جديد يحترم وحدة الجسد وتعامل الأعضاء، كلّ الأعضاء، واتّصالها برأس واحد هو المسيح. في هذا السياق تشكّل وظيفة الشَّماسات بداية جيّدة.

معهد اللاهوت من قبل هذه أو تلك من القيادات الكنسية. ومن عوارض هذا الركود الأخطر أن ينظّم المجمع الأنطاكيّ الموسّع مؤتمراً علمياً حول العائلة والتحديات التي تواجهها (2019)، وألاّ يُدعى إلى بعض جلساته إلاّ سيّدة واحدة بصفتها كاتبة في الشؤون اللاهوتية، وهي كاتبة من اثنتين عرفتهما المكتبة الأنطاكية (فريدة حدّاد وإيما خوري)، وسيّدة أخرى بصفتها خبيرة في علم النفس. هذا، إن دلّ على شيء، فعلى قحط ما أو وهم قحط على صعيد اشتراك النساء في حياة الكنيسة، وعلى عدم وعي الجسم الكنسيّ إلى أهمّية «أن يقيم الأسقف، إذا أراد تحقيق خدمة حسنة، خداما من الرجال والنساء»، كما علّمنا الديداسكالية.

في رأيي أنّ الحديث عن وظيفة الشَّماسات في الماضي، واليوم، وفي المستقبل، يتطلّب النظر في عدد من الجوانب، وتقييمًا جدّيًا لها، لا سيّما دور النساء في الكنيسة وحياتها. إلى أيّ مدى يمكننا أن نفكر بتخطّي وافع «ترتيب الأزهار وإعداد القهوة» إلى تحقيق شركة فعّالة وتكامل في الخدمة، تحقيقًا للدعوة الإفخارستية.

لاستعادة وظيفة الشَّماسات علينا أن نبحث في الغاية منها اليوم. فعلاقتها مع معمودية النساء أصبحت باطلة، وذلك لأنّ ممارسة معمودية البالغين اختفت في الكنيسة، وأمست نادرة الحصول. ولكنّ الجانب الرعائيّ هو اليوم أكثر إلحاحًا من أيّ وقت مضى. فكما قالت الديداسكالية، وقبلها إغناطيوس الأنطاكيّ، وبعدها المؤسّسات الرسولية، تبقى العناية بالمحتاجين والفقراء والمهمّشين والمقهورين في قلب حياة الكنيسة، وما هي بأمر طارئٍ عليها أو حادث أو نافل. إنّها العمل